المتنبي فى مصر

بقلم على النجدى ناصف

مفتش المعارف بملوى

متى فكر فى رحيله الى مصر ؟

لم تكن فكرة ارتحال المتنبي إلى مصر وليدة الساعة التى أزمع فيها الخروج من حلب ، ولكنها كانت فكرة مدبرة ، يرجع عهدها إلى تغير سيف الدولة عليه ، وشعور المتنبي أن قد حانت آخرة أيامه عنده . وآية ذلك قوله فى قصيدة العتاب التى أنشده إياها على أثر الدسائس التى دسها أبو فراس وشيعته :

أَرَى النَّوَى تَقْتَضِينِي كُلَّ مَرْحَلَةٍ لَا تَسْتَقِلُّ بِهَا الْوَخَّادَةُ الرُّسُمُ

لَئِنْ تَرَكْنَ ضُمَيْرًا عَنْ مَيَامِنِنَا لَيَحْدُثَنَّ لِمَنْ وَدَّعْتُهُمْ نَدَمُ

فضمير جبل قريب من دمشق ، يكون على يمين السائر إذا انحدر الى الجنوب (١)

طريقه الى مصر :

إذاً ، فقد بارح المتنبي حلب ، وإنه ليعلم أين يقصد ؟ لذلك لا ندرى لماذا عاج على دمشق ، ولم يمض لطيته قدما ؟ أفتراه كان يتلبث بها لعل الأمير يراجع نفسه ، ويعيد النظر فى أمره ، فيبدو له فيه ، ويبعث فى استرضائه ؟ أم تراه قصد أن يتمهل ريثما تنتهى إلى كافور أخبار مفارقته سيف الدولة وسخطه عليه ، فيطلبه ، وتكون هجرته إليه بدعوة منه ؟ لقد كان المتنبي فى مصر نادما حزينا

(١) شرح التبيان : ٢ : ٢٦١

لفراق سيف الدولة . وها هو ذا يأسف أن أسرع المسير عنه ، وجانب الطريق إليه ، حيث يقول :

وَلِلّٰهِ سَيْرِى ، مَا أَقَلَّ تَئِيَّةً عَشِيَّةَ شَرْقِىَّ الْحَدَالَى وَغُرَّبُ
عَشِيَّةَ أَخْفَى النَّاسِ بِى مَنْ جَفَوْتُهُ وَأَهْدَى الطَّرِيقَيْنِ الذِى أَتَجَنَّبُ (١)

وسنرى عما قريب أنه لم يُغِذَّ السير إلى مصر حتى جاءه الطلب من كافور . نعم ، لقد كتب كافور إلى عامله فى دمشق ، يطلب المتنبى ، ولكن العامل فيما نرجح لم يبلغ المتنبى رغبة كافور ، وكتب إليه يدعى أن المتنبى يقول : لم أقصد العبد ، وإن دخلت مصر فما أقصد إلا ابن سيده ، ذلك بأن العامل سأل أبا الطيب أن يمدحه ، فلم يفعل (٢)

ولا ندرى كم لبث المتنبى فى دمشق ، ولكننا نستطيع أن نقول : إنه لم يلبث فيها طويلا ؛ لأنه دخلها على نية السفر ، ولم تكن علاقته بواليها مرضية .

فى الرملة :

ثم انحدر إلى الرملة ، وكان أميرها الحسين بن طغج ، فأكرم وفادته ، وأهدى إليه هدايا نفيسة ، وخلع عليه ، وقلده سيفا محلى ، وحمله على فرس بمركب ثقيل (٣) . ونعتقد أن المتنبى لم يمدح الأمير بما أفضل عليه . فكل ما قاله فيه لا يزيد على قصيدة واحدة ، وطائفة من المقطعات ، ارتجلها فى مناسبات معروفة ، ليس بينها الشكر على هبات . فجميعها إذاً مما نظمه الشاعر حين زار الرملة من قبل ، تلبية لدعوة الأمير .

وإذاً يكون من العجائب حقا أن يتقبل الشاعر عطايا الأمير ، ثم يسكت عن مدحه ، كأن لم يُفِدْ منه شيئا ، وهو القائل لفاتك :

---

(١) الحدالى بفتح الحاء وضمها موضع بالشام ، وغرب جبل هناك . التئية التلبث .
(٢) الصبح المنبى : ١ : ١٠٩
(٣) الصبح المنبى : ١ : ١٠٩ ، ١١٠

وَمَا شَكَرْتُ لِأَنَّ الْمَالَ فَرَّحَنِي سِيَّانِ عِنْدِيَ إِكْثَارٌ وَإِقْلَالُ
لَكِنْ رَأَيْتُ قَبِيحاً أَنْ يُجَادَ لَنَا وَأَنَّا بِقَضَاءِ الْحَقِّ نُخَالُ

فليت شعرى هل علم الشاعر أن الأمير لم يعطه هذه العطايا رغبة المدح، ولكن برا بسابقة المودة والتعارف ليس غير؛ لأنه لا يرى من حسن الذوق أن يمدحه المتنبي قبل أن يمدح ولى الأمر فى الدولة، بعد إذ صح عنده أنه فى طريقه إليه؟ ربما كان ذلك، ولكن ليس بعيدا أيضا أن تكون هذه الهبات من كافور لا من ابن طغج، بعثها إليه؛ ليستهويه، ويحبب إليه القدوم على مصر، وإذاً يكون المتنبي قد ادخر الجزاء عليها إلى يوم يلقى صاحبها.

شوق كافور للقاء المتنبي:

أما كافور، فكان يتحرق شوقا إلى المتنبي أن يقصده، ويقول فيه شعرا، نفاسة على سيف الدولة، ونزوعا إلى ما كان ينزع إليه سائر الملوك، وأصحاب الجاه والسلطان يومئذ، حتى لقد كان يسائل اصحابه حين وصل المتنبي إلى الرملة، يقول لهم فى قلق وإشفاق: أترونه يبلغ الرملة ولا يجيئنا؟ كأن ما نقله عامل دمشق كان يريبه فى أمر المتنبي، ويلقى فى روعه أنه ليس بزائره، ولو قرب مزاره منه.

ثم كتب كافور إلى امير الرملة، يطلب المتنبي، فسار إليه، ودخل مصر سنة ٣٤٦. وربما كان ذلك (كما يقول العكبرى) فى أعقاب الصيف، أو مطلع الخريف (١)؛ لقوله فى إحدى كافوريانه، يصف جوّ الصحراء، كما قاساه فى مقدمه على مصر:

أَلَا لَيْتَ يَوْمَ السَّيْرِ يُخْبِرُ حَرُّهُ فَتَسْأَلَهُ، وَاللَّيْلَ يُخْبِرُ بَرْدُهُ

(١) التبيان: ١: ٢٥٢

إقامته بمصر :

وقد أمر له كافور بمنزل يقيم فيه ، ويظهر أنه كان منزلا حسن الأثاث ، وثير الفراش ، كما يفهم من قوله فى قصيدة الحمى :

وَزَائِرَتِى كَأَنَّ بِهَا حَيَاءً فَلَيْسَ تَزُورُ إِلاَّ فِى الظَّلَامِ
بَذَلْتُ لَهَا المَطَارِفَ وَالحَشَايَا فَعَافَتْهَا ، وَبَاتَتْ فِى عِظَامِى

وعهد بخدمته إلى طائفة من الغلمان ، يلازمونه ، ويركبون معه إذا ركب . قال :

أَنَا اليَوْمَ مِنْ غِلْمَانِهِ فِى عَشِيرَةٍ لَنَا وَالِدٌ مِنْهُ يُفَدِّيهِ وُلْدُهُ

قالوا : وقد وكل به كافور جماعة ، وأظهر التهمة له (١) وإذا فقد وُضع الشاعر تحت المراقبة منذ هبط مصر ، فلم يكن حرا يتنقل حيث يشاء ، أو يتصل بمن يريد ، غير مقيد ولا محاسب . ولا بد أن المتنبي قد ساءته هذه المعاملة الشاذة ، فأنكرها ، واحتج عليها ، ولذا رأيناه يعرض عن مدحه ، ويصبر على الإعراض عنه حين طالبه به ، حتى اضطر كافورا أن يلاطفه ، ويأخذه بالإحسان والمخادعة . فخلع عليه ، ووعده أن يبلغه جميع ما فى نفسه ، فهدأت ثائرة الشاعر ، ومدحه ، ورضى عنه إلى حين (٢)

ولعل آثار هذه المراقبة تبدو أوضح ما تكون فى أمرين : أولها أن ليس فى أخبار الشاعر التى نعرفها ، ولا فى شعره دلالة على أنه اتصل بأو نوجور ، أو مدحه ، اللهم إلا أبياتا قلائل جاءت عرضا فى مرثية رثى بها والده الاخشيد ، وليست فى الديوان ، ومطلعها :

هُوَ الزَّمَانُ مُشِتٌّ بِالَّذِى جَمَعَا فِى كُلِّ يَوْمٍ تَرَى مِنْ صَرْفِهِ بِدَعَا

(١) الصبح المنبى : ١ : ١١٢
(٢) الصبح المنبى : ١ : ١١٢ ، ١١٣

ومن أبيات المدح فيها قوله :

ثَبتُ الْجَنَانِ، فَلاَ نِكْسٌ وَلاَ وَرِعٌ تَلْقَاهُ مُتَّزِرًا بِالْحَزْمِ مُدَّرِعَا
أَعْطَتْ أَبَا الْقَاسِمِ الْأَمْلاَكُ بَيْعَتَهَا وَلَوْ أَبَتْ أَخَذَتْ أَسْيَافُهُ الْبِيَعَا (١)

وكأن المتنبي كان يرى أن مدح أونوجور واجب لا مفرّ منه، ولا هوادة فى أدائه ؛ لأنه ولى الأمر، وحاكم البلاد الشرعى، فلما أن تعذر عليه مدحه قصدا، رأى أن يعمل الحيلة لمدحه، فرثى أباه، ثم تخلص من الرثاء إلى التعزية والمدح.

بينه وبين فاتك :

الأمر الثانى أن المتنبي لم يستطع أن يتصل بفاتك، أو أن يمدحه إلا بعد لأى ومصابرة، وترقب للمصادفة المواتية أن تأتى بمالا يحتسب، فقد سمع المتنبي بفاتك فأحبه، وأعجب بشجاعته وسخائه. وكان فاتك يسأل عنه، ويرسل السلام إليه، ثم التقيا فى سفر على غير موعد، فتعارفا، وأنس كلاهما بصاحبه. ولما رجع فاتك حمل إليه هدية جليلة قيمتها ألف دينار، ثم تتابعت عليه صلاته وهداياه، فاستأذن كافورا فى مدحه، فأذن له، ولكن على كره منه ؛ لأنه كان يخاف فاتكا، ويتكلف له الحب والكرامة، مداهنة ورئاء (٢) فمدحه المتنبي بقصيدة واحدة، لم يزد عليها، مع أنه لبث فى مصر بعدها نحو ثلاث سنين. وتلك هى القصيدة الطنانة، التى مطلعها :

لاَ خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلاَ مَالُ فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ، إِنْ لَمْ تُسْعِدِ الْحَالُ

وإذا صح أن فاتكا توفى فى شوال سنة ٣٥٠، وأن المتنبي لم يرثه إلا بعد فراره من مصر - يكون الشاعر قد شهد وفاته، ولكن حيل بينه وبين رثائه فى حينه (٣).

(١) راجع زيادات ديوان شعر المتنبي ١ ص : ٢٩، ٣٠
(٢) النجوم الزاهرة : ٤ : ٥
(٣) وفيات الأعيان : ١ : ٥١٤

ولئن كان المتنبي فى مصر لم يستطع أن يؤدى حق فاتك عليه حيا وميتا ، لقد عرف بعد خروجه من مصر كيف يؤديه على الوجه الذى يرضى الشهامة والإخلاص ، فقد ظل على حبه والوفاء له ، يرثيه ويتوجع لفقده كلما بدت مناسبة ؛ رثاه أولا بعينيته الرائعة :

الْحُزْنُ يُقْلِقُ ، وَالتَّجَمُّلُ يَرْدَعُ وَالدَّمْعُ بَيْنَهُمَا عَصِيٌّ طَيِّعُ

ودخل عليه صديق ، وبيده تفاحة من نَد ، عليها اسم فاتك ، وكانت مما أهداه إليه فهاجته الذكرى ، وتملكه الأسى ، فقال كلمته المؤثرة ، التى منها :

يُذَكِّرُنِى فَاتِكًا حِلْمُهُ وَشَيْءٌ مِنَ النَّدِّ فِيهِ اسْمُهُ

وَلَسْتُ بِنَاسٍ ، وَلَكِنَّنِى يُجَدِّدُ لِى رِيحُهُ شَمُّهُ

ونظم بعد خروجه من بغداد سنة ٣٥٢ ، قصيدة ذكر فيها مسيره من مصر وألم فيها برثاء فاتك كذلك ، وأولها :

حَتَّامَ نَحْنُ نُسَارِى النَّجْمَ فِى الظُّلَمِ وَمَا سُرَاهُ عَلَى خُفٍّ وَلَا قَدَمِ ؟ !

ومن أبيات الرثاء فيها :

لَا فَاتِكٌ آخَرٌ فِى مِصْرَ نَقْصِدُهُ وَلَا لَهُ خَلَفٌ فِى النَّاسِ كُلِّهِمِ

مَنْ لَا تُشَابِهُ الْأَحْيَاءُ فِى شِيَمٍ أَمْسَى تُشَابِهُهُ الْأَمْوَاتُ فِى الرِّمَمِ

ولعل المراقبة التى فرضت على المتنبي لم تكن خاصة ، ولعل سببها أن كافورا كان يومئذ فى موقف حرج تساوره المخاوف ، وتأخذه الشكوك من كل جانب ؛ لكثرة حساده والمزاحمين له ، أن أوتى من بسطة السلطان ، وعلو الكلمة فى البلاد ، مالم يؤت أحد غيره ، على سوء منبته ، ونقص رجولته ، فمن الخير له ألا يتصل الناسُ إلا على رقبة وتخوف ، وألا يرتفع صوت بالمدح إلا له وحده ليكبت الخصوم . ويأمن شر الدسائس .

وما كان كافور فى توجسه من ناحيتى أونوجور وفاتك واهما ولا مسرفا

فى الحذر ؛ فقد حدث ـ والمتنبي بمصر ـ أن طائفة من الغلمان اتصلوا بأونوجور يريدون أن يكيدوا لكافور ، ويفسدوا الأمر عليه ، فقطن كافور لهم ، وعرف ما يبيتون له ، فطالب أونوجور بتسليمهم إليه ، فسلمهم ، وتم الصلح بينهما ، وأنشأ أبو الطيب فى ذلك قصيدته :

حَسَمَ الصُّلْحُ مَا اشْتَهَتْهُ الأَعَادِى ... وَأَذَاعَتْهُ أَلْسُنُ الْحُسَّادِ
وَأَرَادَتْهُ أَنْفُسٌ ، حَالَ تَدْبِيـ ... ـرُكَ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمُرَادِ

ومنها :

إِنَّمَا أَنْتَ وَالِدٌ ، وَالأَبُ الْقَا ... طِعُ أَحْنَى مِنْ وَاصِلِ الأَوْلاَدِ[1]
لاَعَدَا الشَّرُّ مَنْ بَغَى لَكُمَا الشَّرَّ ... مَ وَخَصَّ الْفَسَادُ أَهْلَ الْفَسَادِ
أَنْتُمَا ـ مَا اتَّفَقْتُمَا ـ الْجِسْمُ وَالرُّو ... حُ ، فَلاَ احْتَجْتُمَا إِلَى الْعُوَّادِ !
وَإِذَا كَانَ فِى الأَنَابِيبِ خُلْفٌ ... وَقَعَ الطَّيْشُ فِى صُدُورِ الصِّعَادِ

وأما فاتك فكان رفيق كافور فى خدمة الإخشيد ، فلما مات الاخشيد . وأقيم كافور قيما على أونوجور ـ لم يطق فاتك الاقامة معه ؛ أنفة من أن يكون أدنى رتبة منه ، فرحل إلى الفيوم ، وكانت إقطاعا له ، وما زال بها حتى مرض ، وأحوجه المرض إلى دخول مصر للمعالجة ، وكان فاتك رجلا كريم النفس ، بعيد الهمة ، شجاعا مقداما[2] . وإن رجلا له هذه المواهب والصفات ، لجدير إذا غبن أن يُتقى بأسه ، ويُحذر جانبه .

اتهام كافورا بالنزالة :

ويدعى المتنبي فى غير تلوم ولا مواربة أن كافورا كان يأكل من زاده . تجد ذلك فى أهجيتين من أهاجيه فيه . قال :

(١) أى من الأولاد الواصلين ، من إضافة الصفة للموصوف
(٢) وفيات الأعيان : ١ : ٥١٣ ، ٥١٤

جَوْعَان ، يَأْكُلُ مِنْ زَادِى ، وَيُمْسِكُنِى
لِكَىْ يُقَالَ : عَظِيمُ الْقَدْرِ مَقْصُودُ

وقال :

لَوْ كَانَ ذَا الْآكِلُ أَزْوَادَنَا ضَيْفًا ، لَأَوْسَعْنَاهُ إِحْسَانَا
لَكِنَّنَا فِى الْعَيْنِ أَضْيَافُهُ يُوسِعُنَا زُورًا وَبُهْتَانَا
فَلَيْتَهُ خَلَّى لَنَا سُبْلَنَا أَعَانَهُ اللهُ وَإِيَّانَا !

وهى دعوى غريبة ، لا ندرى : أهى صادقة لا تخيل فيها ولا افتعال ، أم كاذبة دفعه إلى تلفيقها ، ووصم كافور بها مجرد الرغبة فى ثلبه والتشنيع عليه ؟ فقد كان الرجل كريما كثير الهبات . يصنع فى مطبخه مقادير وافرة من ألوان الطعام(١)

ويرى الواحدى أن هذه التهمة صحيحة ، ثم يذهب فى تفسيرها والتماس العلل لها مذهبين : أحدهما أن المتنبى ربما أهدى اليه هدية فتقبلها منه ، ولم يكافئه عليها ؛ والآخر ، وهو أشبه بالصواب من قرينه ، وأقرب إلى المفهوم من قول الشاعر فى ذلك ـ أن المتنبى ربما كان يأكل من خاصة ماله ، وينفق على نفسه مما حصل معه ، ثم كان يستأذنه فى الخروج فلا يأذن له . فلم يكن يطعمه ، ولا يسمح له أن يقصد غيره ، ممن يتوسم فيهم الخير والجود . والمعروف على كل حال أن المتنبى عند كافور لم يكن مكفىّ الحاجة كما كان عند سيف الدولة ، فلم تكن له جراية يأكل منها ، ولا طعمة يستغلها .

وعده بالولاية :

ويذكر بعض الرواة أن كافورا وعد المتنبى بولاية بعض النواحى ، ولكنه لما رأى تعاليه فى شعره ، وسموه بنفسه ـ أخلف الوعد ؛ مخافة أن يدعى الملك من بعده ، كما ادعى النبوة بعد النبىّ صلى الله عليه وسلم (٢)

(١) النجوم الزاهرة : ٤ . ٣ ـ ٦ ، هامش ص : ٩
(٢) وفيات الأعيان : ١ : ٤٥

وعجيب حقا أن يتورط كافور على هذا النحو في هذه الموعدة الجليلة ، يضيق بها على نفسه واسعا ، ويلزمها ماليس لازما ، وإن له عنها مندوحة وسعة . فالخطب هين ، والرجل معروف بسعة الحيلة ، وحصافة الرأى (١) . وهولا جرم يعلم أن كذبة الأمير بلقاء مشهورة ، كما يقول زياد . فهل تراه يوم وعد هذا الوعد كان جادا فيه ، وعازما على الوفاء به ؟ وإذاً فما باله غير رأيه ، ورجع عما عزم عليه ؟ لا أظن السبب كما يقول بعض الرواة ، أن كافورا رأى منه فى أشعاره تعاليا وطموحا لاعهد له بهما من قبل ، لأن الذى أطفأ ثورة المتنبي ببادية السماوة عامل من عمال الاخشيدية ، ولأن المتنبي من قبل أن يدخل مصر كان أسير شعرا وأنبه ذكرا من أن تخفى نفسيته و مطامعه على مثل كافور .

وليت شعرى لماذا وعده كافور بالولاية إذا لم يكن حقا يعرف نزوعه اليها ، و شغفه بها ، ولم يكن يريد بهذه الموعدة أن يصانع نزعته ، ويغلى مرضاته ، عسى أن يختصه من مدحه بما لم يختص به أحدا من ممدوحيه ؟ فقد درج الناس فى مكافأة الشعراء على الاكتفاء باسناء الجائزة ، ورفع المنزلة .

وليس فى كلام البديعى مايدل على أن كافورا وعد المتنبي بالولاية صراحة ؛ فكل ما ذكره فى هذا المقام أن كافورا وعد المتنبي أن يبلغه جميع ما فى نفسه (٢)

وعندى أن هذا الأسلوب فى مرونته وعمومه أشبه بكلام الأكياس ومتعاطى السياسة من الأمراء ، فهو جدير أن يصدر عن كافور ، وأن يصح انتسابه اليه ؛ وإذاً لم يكن هناك وعد صريح بولاية ، ولا بأى مأرب معين ، وإنما كان هناك وعد مرن يمكن أن يتسع حتى يشمل كل مأرب ، وأن يضيق حتى يغص بأى مأرب ، لكن المتنبي على ما يظهر صرفه إلى الولاية ، وقصره عليها ، حتى كان كأنه وعد بها . ولا غرو فقد كان السلطان أعلق الأمانى بذهنه ، وأكثرها امتزاجا به ، وتسلطا عليه .

ولم يشأ المتنبي بعد ذلك أن يترك أمنيته هذه رهنا بارادة كافور ، يتفضل بها

(١) النجوم الزاهرة : ٤ : ٦

(٢) الصبح المنبي : ١ : ١١٣

عليه متى أراد ، ولذا راح يتنجزها عنده ، كأنها حق من حقوقه الثابتة ، ولا ندرى ما ذا كان جواب كافور يوم بدأ المتنبي يطالبه ؟ ولكننا نستطيع أن نفهم من تشبث المتنبي بالمطالبة ، وتماديه فيها - أن كافورا على الأقل لم ينكر عليه التطلع إلى الولاية ، ولم يصده عن السعى لها .

وقد فصلنا أطوار هذه المطالبة كما تدرج فيها المتنبي ، منذ دخل مصر إلى خروجه منها ، فى العدد الأول من أعداد السنة الثانية لهذه الصحيفة ، فارجع اليها إن شئت .

بين المتنبى ووزير كافور :

والظاهر أن كافورا لم يكن يأبى على المتنبي أن يتولى بعض أعماله ، ولكن الوزير ابن الفرات زين له ألا يتورط فى ذلك ؛ لأنه كان يطمع أن يمدحه المتنبي لكن المتنبي أعرض عنه ، فحقد عليه ابن الفرات ، واتخذه غرضا للوقيعة والدس ووجد فى بعض كافورياته منفذا الى غايته ، قال الواحدى : « كنت بمصر ، وبها أبو الطيب ، ووقفت من أمره على شفا الهلاك . ودعتنى نفسى - لحب أهل الأدب - إلى أن أحثه على الخروج من مصر ، فخشيت على نفسى أن يشيع ذلك عنى ، وكان هو مستعداً للهرب وإنما فات أظافير الموت ، ومخالب المنية من قرب ، وهو جنى ذلك على نفسه ، لأنه ترك مدح ابن حنزابة وهو وزير كافور ، والمقرب منه . وأنشد القصيدة اليائية ، وأولها مما يتطير منه ، كيف لا و براعتها :

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا ... وَحَسْبُ الْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا

تَمَنَّيْتَهَا لَمَّا تَمَنَّيْتَ أَنْ تَرَى ... صَدِيقاً ، فَأَعْيَا ، أَوْ عَدُوًّا مُدَاجِيَا

وهذا الابتداء مما تمجه الأسماع ، فقبح ابن حنزابة أثره ، ثم لم يزل يذكر سواد كافور ووراءه من ينبه على عيوبه . (١)

---

(١) الصبح المنبى . ١ : ١٦١ - ١٢٥

المتنبى يخرج - فى ابتداء كافور - من التلويح الى التصريح :

ومن الأبيات التى تعمد فيها أن يؤلمه ، ويسىء اليه فى صراحة وقلة اكتراث قوله فى إحدى مدائحه وقد تقدم :

وَلِلّٰهِ سَيْرِى ، مَا أَقَلَّ تَئِيَّةً ... عَشِيَّةَ شَرْقِىَّ الْحَدَالَى وَغُرَّبُ

عَشِيَّةَ أَخْفَى النَّاسِ بِى مَنْ جَفَوْتُهُ ... وَأَهْدَى الطَّرِيقَيْنِ الَّذِى أَتَجَنَّبُ

وقد أشار المتنبى إلى سعاية ابن الفرات فى قوله فى مدح كافور :

وَأَبْلَجَ يَعْصِى بِاخْتِصَاصِى مُشِيرَهُ ... عَصَيْتُ بِقَصْدِيهِ مُشِيرِى وَلُوَّمِى

فَسَاقَ إِلَىَّ الْعُرْفَ غَيْرَ مُكَدَّرٍ ... وَسُقْتُ إِلَيْهِ الشُّكْرَ غَيْرَ مُجَمْجَمِ

وكان ظاهر أمر المتنبى يدل على أنه كان يجل كافورا أكثر من سيف الدولة ، إذ كان لا يجلس فى مجلسه ، ولا ينشده إلا قائما . وكأن كافورا رأبه هذا الخضوع فى مراسم الزيارة والانشاد ، يصطفيه به على سيف الدولة ، وقد كان سيف الدولة أحق به وأهله ؛ فدس عليه من يقول له :

« قد طال قيامك يا أبا الطيب فى مجلس كافور » يريد أن يعلم مافى نفسه فقال :

يَقِلُّ لَهُ الْقِيَامُ عَلَى الرُّءُوسِ ... وَبَذْلُ الْمَكْرُمَاتِ مِنَ النُّفُوسِ

إِذَا خَانَتْهُ فِى يَوْمٍ صَحُوكٍ ... فَكَيْفَ تَكُونُ فِى يَوْمٍ عَبُوسِ ؟[1]

على أن المتنبى قد زاد التكبر فى مظهره ، بمقدار ما نقص منه فى حضرة كافور ، فقد كان يخرج وفى وسطه منطقة وسيف ، ويركب فى موكب من مماليكه ، وهم بالسيوف والمناطق [2] . ومظهر هذا وذاك فيما يبدو - إلى طمعه فى الولاية ، وتهيئه لها ، وشدة حرصه على الظفر بها .

---

(١) الصبح المنبى : ١ : ١١٣ ، ١١٤ ، والتبيان : ١ : ٣٦٤

(٢) المصدر الأول نفسه ، وأدب اللغة العربية فى العصر العباسى : ٢٧٩

يأس المتنبي من كافور :

ولما طال عليه أمد الانتظار دون أن ينال من بغيته منالا ، أراد أن يعلم نية صاحبه فى الأمر ، ليقطع بالرأى الحاسم هذه الحالة المعلقة ، فإما نجاح معجل يبلغه الولاية فى غير مراوغة ولا مطال ، وإما حرمان لا تردد فيه يحل اليأس محل الرجاء ، وينتهى به من صاحبه إلى وضع جديد ، فتقدم إليه يسأله أن يوليه صيداء أو غيرها من بلاد الصعيد ، فقال له كافور : أنت فى حال الفقر ، وسوء الحال ، وعدم المعين سمت نفسك إلى النبوة ، فإن أصبت ولاية وصارلك أتباع فمن يطيقك ؟ ثم وقعت الوحشة بينهما ، ووضع عليه العيون والأرصاد ، خوفا من أن يهرب ؛ وأحس المتنبي بالشر (١)

ولم يعزب عن كافور وقد جابه المتنبي بالحرمان فى هذا الأسلوب الجافى . أنه حرمه أكرم أمانيه وأعزها عليه ، وصدمه صدمة قاسية ، ستثير فى نفسه الكراهة والحقد ، وتنتزع كل أثر من آثار الثقة به ، والإخلاص له ؛ فلذلك أعد كافور للأمر عدته ، وشدد المراقبة على المتنبي مخافة أن يهرب ، ويبسط فيه لسانه بالذم والتشهير . ولعله كان يعلم أن مجال القول فى ذمه أوسع منه فى مدحه ، وأن المتنبي قادر على أن يذيقه من آلام الهجاء أضعاف ما أطربه من بدائع المدح ، فأصر على استبقائه عنده حيا أو ميتا . وقد مر بك قريبا أنه قبيل أن يفر من مصر كان مشرفا على الهلاك .

إصراره على الخروج من مصر :

وقد قابل المتنبي هذا الإصرار من كافور بإصرار مثله على الخروج من مصر ؛ استمع له ، وهو يلح إلى كراهة البقاء فيها ، والعزم على الرحيل منها . قال:

أَقَمْتُ بِأَرْضِ مِصْرَ ، فَلَا وَرَائِى تَخُبُّ بِىَ الْمَطِىُّ ، وَلَا أَمَامِى
وَمَلَّنِىَ الْفِرَاشُ ، وَكَانَ جَنْبِى يَعَلُّ لِقَاءَهُ فِى كُلِّ عَامِ

(١) الصبح المنبى : ١ : ١١٥

وقال :

ألاَ يَالَيْتَ شِعْرَ يَدِى : أَتُمْسِى ... تَصَرَّفُ فِى عِنَانٍ أَوْ زِمَامِ ؟
وَهَلْ أَرْمِى هَوَاىَ بِرَاقِصَاتٍ ... مُحَلاَّةِ الْمَقَاوِدِ بِاللُّغَامِ ؟
فَرُبَّمَا شَفَيْتُ غَلِيلَ صَدْرِى ... بِسَيْرٍ ، أَو قَنَاةٍ ، أَو حُسَامِ
وَصَانَقْتُ خُطَّةً فَخَلَصْتُ مِنْهَا ... خَلاَصَ الْخَمْرِ مِن نَسجِ الْفِدَامِ
وَفَارَقْتُ الْحَبِيبَ بِلاَ وَدَاعٍ ... وَوَدَّعْتُ الْبِلاَدَ بِلاَ سَلاَمِ
يَقُولُ لِىَ الطَّبِيبُ : أَكَلْتَ شَيْئًا ... وَدَاؤُكَ فِى شَرَابِكَ وَالطَّعَامِ
وَمَا فِى طِبِّهِ أَنِّى جَوَادٌ ... أَضَرَّ بِجِسْمِهِ طُولُ الْجِمَامِ
تَعَوَّدَ أَنْ يُغَبِّرَ فِى السَّرَايَا ... وَيَدْخُلَ مِنْ قَتَامٍ فِى قَتَامِ
فَأَمْسِكْ ، لاَ يُطَالُ لَهُ فَيَرْعَى ... وَلاَ هُوَ فِى الْعَلِيقِ وَلا اللِّجَامِ
فَإِنْ أَمْرَضْ فَمَا مَرَضِى اضْطِبَارِى ... وَإِنْ أُحْمَمْ فَمَا حُمَّ اعْتِزَامِى

واستأذن كافورا فى المسير إلى الرملة ؛ ليخلص مالا له ، فتبين كافور فيما يظهر أنه يحتال للهرب ، فلم يأذن له ، وقال : نحن نبعث فى خلاصه ، ونكفيك مئونة السفر . فاستاء ، ونظم مقطعة يذكر فيها هذه الواقعة ، قال :

أَتَحْلِفُ لاَ تُكَلِّفُنِى مَسِيرًا ... إِلَى بَلَدٍ أُحَاوِلُ فِيهِ مَالاَ
وَأَنْتَ مُكَلِّفِى أَنِّى مَكَانًا ... وَأَبْعَدَ شُقَّةً ، وَأَشَدَّ حَالاَ
إِذَا سِرْنَا عَنِ الفُسْطَاطِ يَوْمًا ... فَلَقِّنِىَ الفَوَارِسَ وَالرِّجَالاَ
لِتَعْلَمَ قَدْرَ مَن فَارَقْتَ مِنِّى ... وَأَنَّكَ رُمْتَ مِن ضَيْمِى مُحَالاَ

احتياله للخروج :

ورأى أخيرا أن يعمل الحيلة فى أمره ، ويستعين على نجاحها بالخديعة والكتمان ، فأظهر الرغبة فى المقام بمصر ، وراح على مر الأيام يعد كل ما تحتاج إليه رحلته بلطف ورفق ، ولا يعلم أحد من غلمانه شيئا مما استقر رأيه عليه ، ثم كان عيد النحر ، وكان رسم السلطان ـ فيما يقول البغدادى ـ أن يُستقبل العيد بيوم وتعد فيه الخلع والحملانات وأنواع المبار لرابطة جنده ، وراتبة جيشه . وصبيحة العيد تفرق ، وثانى اليوم يذكر له من قبل ، ومن رد واستزاد ، فاهتبل المتنبى غفلة كافور ، وخرج فدفن الرماح فى الرمال ، وحمل بغاله وجماله ، وانطلق ليلة العيد سنة ٣٥٠ ، يطوى المفاوز ، ويجتاز بالحلل والمياه فى طريقه إلى الكوفة (١)

ويروى البديعى أن فرار المتنبى كان يوم العيد نفسه (٢) ، لكن المتنبى ذكر فى القصيدة التى قص فيها قصة فراره أنه خرج ليلا . قال :

وَنَامَ الخُوَيْدِمُ عَنْ لَيْلِنَا وَقَدْ نَامَ قَبْلُ عَمًى ، لاَ كَرَى

أما كافور فقد ارتاع لهربه ارتياعا شديدا ، ولم يترك وسيلة تخطر بباله ، ويظن أنها قد ترده عليه إلا التمسها واستعان بها ؛ فكتب إلى عماله فى طلبه ، وبذل الرغائب الجليلة لمن يجىء به ، فترصدته العيون بكل مرصد ، وثارت وراءه البادية والحاضرة من كل جانب ، فلم يهتدوا إليه ، ولم يظفروا به ، كأنما غاص بين سمع الأرض وبصرها ، حتى قال بعض البادية : هبه سار ، فهل محا أثره ؟ وحتى قال بعض المصريين من فرط الحيرة والدهش : لقد سلك طريقا تحت الأرض (٣) ذلك لأن المتنبى كتم أمره ، وأخفى طريقه ، وأغذّ السير فى مراحله الأولى ، ولأن كافورا فيما يظهر من مراسم العيد — لم يعلم نبأ فراره إلا ثانى يوم العيد ، أى بعد يوم وليلة على الأقل . وبلغ المتنبى الكوفة فى جمادى الآخرة سنة ٣٥١

(١) خزانة الأدب : ٢ . ٣٠٨ ، ٣٠٩

(٢) الصبح المنبى : ١ : ١٣٩

(٣) المصدر نفسه

فدخلها جاهدا مكدودا ، بعد رحلة طويلة مضنية ، شدما ساورته فيها الوساوس والمخاوف فى كل طريق سلكه ، وكل منزل نزل به .

حوادث رحلته :

ووقعت فى هذه الرحلة حوادث ، أحصاها المتنبي فى شعره ، وتحدث البديعى عنها ، قال : « . . . ودخل أبو الطيب إلى موضع يعرف بنخل ، بعد أيام ، وسار حتى قرب من النقاب ، فرأى رائدين لبنى سليم على قلوصين ، فركب الخيل وطردهما حتى أخذهما ، فذكرا له أن أهلهما أرسلوهما رائدين ، فاستبقاهما . ورد عليهما القلوصين ، وسلاحهما . وسار معهما حتى توسط بيوت بنى سليم آخر الليل ، فضرب له ملاعب خيمة بيضاء ، وذبح له ، وسار إلى البقيع ، فنزل بادية معن ، فذبح له . وسار إلى أن دخل حِسْمَى . وهى أرض كثيرة النخل . وطابت له حسمى . فأقام بها شهرا ؛ وكان نازلا عند وردان بن ربيعة الطائى ؛ فاستغوى عبيده . . . فكانوا يسرقون له الشىء بعد الشىء من رحله . وكاتب الأسود سائر قبائل العرب فى طلبه . . . فلما أنكر أبو الطيب أمر العبيد . ووقف على مكاتبة الأسود ، ترك عبيده نياما ، وتقدم إلى الجمال فشد عليها أسبابه ، وسار والقوم لا يعلمون برحيله ، وطرح عبيده على الإبل ، وهم لا يعلمون . وأخذ فى السير ، ومن قوله يهجو وردان هذا :

إِنْ تَكُ طَيِّئٌ كَانَتْ لِئَاماً ... فَأُمُّهَا رَبِيعَةُ أَوْ بَنُوهُ

وَإِنْ تَكُ طَيِّئٌ كَانَتْ كِرَاماً ... فَوَرْدَانٌ لِغَيْرِهِمُ أَبُوهُ

مَرَرْنَا مِنْهُ فِي حِسْمَى بِعَبْدٍ ... يَعُجُّ اللُّؤْمَ مَنْخَرُهُ وَفُوهُ

ولما توسط بسيطة ، وهى أرض تقرب من الكوفة ، رأى بعض عبيده ثورا ، فقال : هذه منارة الجامع ، ونظر آخر إلى نعامة ، فقال : هذه نخلة ، فضحك أبو الطيب ، وضحكت البادية التى كانت معه ، وقال :

بُسَيْطَةُ ، مَهْلاً ، سُقِيتِ القِطَارَا ... تَرَكْتِ عُيُونَ عَبِيدِي حَيَارَى

فَظَنُّوا النَّعَامَ عَلَيْكِ النَّخِيلَ وَظَنُّوا الصُّوَارَ[1] عَلَيْكِ المَنَارَا
وَأَمْسَكَ صَحْبِي بِأَكْوَارِهِمْ وَقَدْ قَصَدَ الضَّحْكُ فِيهِمْ وَجَارَا[2]

وفى الكوفة نظم المتنبي مقصورته المشهورة ، يصف فيها رحيله من مصر ، ويذكر المفاوز التى مر بها أو استراح فيها ، ويفخر بوفائه وإبائه ، وشجاعته ومضائه ، ثم يهجو كافورا ويعرض بالوزير ابن الفرات ، ومطلعها :

أَلاَ كُلُّ مَاشِيَةِ الخَيْزَلَى فِدَى كُلِّ مَاشِيَةِ الهَيْدَبَى

ومنها فى هجاء كافور :

وَأَسْوَدُ مِشْفَرُهُ نِصْفُهُ يُقَالُ لَهُ : أَنْتَ بَدْرُ الدُّجَى
وَشِعْرٍ مَدَحْتُ بِهِ الكَرْكَدَنَّ بَيْنَ القَرِيضِ وَبَيْنَ الرُّقَى
فَمَا كَانَ ذٰلِكَ مَدْحًا لَهُ وَلٰكِنَّهُ كَانَ هَجْوَ الوَرَى

وجملة ما قال المتنبي فى كافور سبع عشرة قصيدة ، منها سبع فى الهجاء ، وسائرها فى المدح والتهنئة .

ويظهر أن صدمة الخيبة التى منى بها فى مصر كانت شديدة الوقع عليه ، عميقة الأثر فى نفسه . ولذا نراه فى شعبان سنة ٣٥٢ ، أى بعد فراره من مصر بقريب من عامين - ينشىء قصيدة خاصة ، يذكر فيها مسيره من مصر مرة أخرى ، ويحزن على مافاته فيها حزنا ممضا ، تخالطه حرقة الغيظ ، ومرارة اليأس ؛ وأولها :

حَتَّامَ نَحْنُ نُسَارِي النَّجْمَ فِي الظُّلَمِ وَمَا سُرَاهُ عَلَى خُفٍّ وَلاَ قَدَمِ ؟
وَلاَ يُحِسُّ بِأَجْفَانٍ يُحِسُّ بِهَا فَقْدَ الرُّقَادِ غَرِيبٌ بَاتَ لَمْ يَنَمِ !

(١) القطيع من البقر
(٢) الصبح المنبي : ١ : ١٣٩ - ١٤٤ ، وشرح العكبرى : ١ : ٣٢٩

ومنها :

لاأُبغِضُ العيسَ ، لكنِّى وَقَيتُ بِهَا ... قَلبِى مِنَ الحُزنِ ، أوْ جِسمِى مِنَ السَّقَمِ
طَرَدْتُ مِنْ مِصرَ أيديها بأرجُلِهَا ... حَتَّى مَرَقْنَ بِنَا مِن جَوشَ وَالعَلَمِ

ومنها :

هَوِّنْ عَلَى بَصَرٍ مَا شَقَّ مَنْظَرُهُ ... فَإِنَّمَا يَقَظَاتُ العَيْنِ كَالْحُلُمِ
وَلاَ تَشَكَّ إِلَى خَلْقٍ فَتُشْمِتَهُ ... شَكْوَى الْجَرِيحِ إِلَى الْغِرْبَانِ وَالرَّخَمِ
وَكُنْ عَلَى حَذَرٍ لِلنَّاسِ تَسْتُرُهُ ... وَلاَ يَغُرَّكَ مِنْهُمْ ثَغْرُ مُبْتَسِمِ

الأعمال المنتبى وصف مصر :

ويعتب بعض المصريين على المتنبى أن أهمل وصف مصر وآثارها الفخمة ، ولم يتغنَّ بجمال مشاهدها الرائعة ، كما فعل ببحيرة طبرية قبل أن يزور مصر ، وكما فعل بشعب بوان ودشت الأرزن بعد أن خرج منها . ولا شك أن محاسن مصر وآثارها الباهرة ، جديرة أن تثير الاعجاب والروعة فى نفس الوافد عليها ، ولاسيما إذا كان كأبى الطيب شاعرا متنبه الإحساس ، متهيء الملاحظة ، مستقيم الفطرة ؛ ولكن أبا الطيب فى الواقع كان منغص الإقامة ، كثير الهموم . وهيهات مع ذلك أن يلتفت الحس إلى فخامة أو جمال ، التفاتا يثير داعية الشعر ، ويحفز إلى التعبير عن خواطر النفس ، واجتلاء صور الخيال ؛ فقد جاء مصر مغاضبا سيف الدولة أحب ممدوحيه إليه ، وأكثرهم أيادى عنده ؛ وفى مصر ضيقت حريته ، وضربت الرقابة عليه ، وحطمت آماله ، وأحدق الخطر بحياته من قريب ؛ ولذا غلب على شعره فى مصر التبرم والانقباض ، حتى ما تكاد تخلو منهما قصيدة مما نظم وهو فيها ، أو بعد خروجه منها وكانت ذات صلة بها .

تهجاؤه للمصريين :

فلا فى الطيب من هذه الناحية شفاعة مسموعة ، يمكن أن تدرأ عنه الملامة والعتب ؛ ولكن الذى يستحق عليه المؤاخذة ، فلا يغنى فى نفيها عنه شفاعة ولا اعتذار ـ أن يحمله شنآن كافور على أن يهجو المصريين ، ويرميهم بالجهل الفاضح تشيع أخباره ، ويضحكَ الناسَ بحمقه ومفارقاته ، قال :

جَازَ الأُلى مَلَكَتْ كَفَّاكَ قَدرَهُمُ ... فَمُرِّفُوا بِكَ أَنَّ الكَلْبَ فَوقَهُمُ

لاَ شَىءَ أَقبَحُ مِن فَحلٍ لهُ ذَكَرٌ ... تَقُودُهُ أَمَةٌ لَيسَت لَهَا رَحِمُ

سَادَاتُ كُلِّ أُنَاسٍ مِنْ نُفُوسِهِمُ ... وَسَادَةُ الْمُسْلِمِينَ الْأَعْبُدُ القَزَمُ

أَغَايَةُ الدِّينِ أَنْ تُحْفُوا شَوَارِبَكُمْ؟ ... يَا أُمَّةً ضَحِكَتْ مِنْ جَهْلِهَا الْأُمَمُ !

نعم ، لا نعرف سببا لهذا الهجاء إلا حقد أبى الطيب على كافور ؛ وإلا فأى ذنب جناه المصريون على أبى الطيب ، فاستحقوا منه كل هذا التحقير والازدراء ؟ إنهم ولا شك لا ذنب لهم فيما أصابه من الخيبة والإخفاق ؛ فلا هم دعوه إلى زيارة بلادهم ، فيتخذ من إخفاقه فيها ذريعة للنقمة عليهم والانتقام منهم ؛ ولا هم غرروا به وأطمعوه حيث لا مطمع ؛ ولا هم وعدوه ثم أخلفوه ما وعدوا ؛ بل لعلهم لم يسيئوا إليه أى نوع من أنواع الإساءة .

إننا نوافق أبا الطيب على أن إحفاء الشوارب ليس غاية الدين ، ونزيد أنه ليس ركنا فيه ، ولا شرطا له ، ولا عملا من أعماله الواجبة ؛ ولكننا لا نوافق أبا الطيب ، ولا نعرف أحدا يوافقه أيضا ، على أن إسناد الولاية إليه عمل من أعمال الدين كتب على المصريين أن يجاهدوا فى سبيله ، ويستحلوا دماء من يحول دونه ، فإن فعلوا فقد أدوا الواجب ، وإن لم يفعلوا فجزاؤهم لعنة الله وهجاء أبى الطيب .

أليس ذلك هو ما يومىء إليه أبو الطيب فى أبياته السابقة ، ويدعو بسببه صراحة إلى صفع كافور وقتله ، حيث يقول :

أَيْدٍ مُقَطَّعَةٌ حَوَالَىْ رَأْسِهِ وَقَفًا يَصِيحُ بِهَا : أَلاَ مَنْ يَصْفَعُ ؟

وحيث يقول :

أَلاَ قَتَى يُورِدُ الْهِنْدِىَّ هَامَتَهُ كَيْمَا تَزُولَ شُكُوكُ النَّاسِ والتُّهَمُ ؟

إن أقل ما يقال عن إحفاء الشوارب أنه عمل غير ضار ، ولكن ماذا عسى أن يقال عن هذه الصيحة من أبى الطيب إلا أنها دعوة باغية ، تحض على سفك الدماء ، والتضحية بأمن الجماعة من أجل مأرب خاص ، كل ما فيه من خير أو منفعة إنما يعود على امرئ لا يعنيها من أمره كثير ولا قليل .

وإذا كان إحفاء الشوارب والقعود عن الفتنة والقتل من أجل أبى الطيب - مما يدل فى رأيه على الجهالة العمياء ، فعلام تدل صيحته هذه فى شرعة الحق والإنصاف ؟

الحق أن أبا الطيب لم يكن منصفا فى هجاء المصريين ، ولو كان هذا دأبه فى كل أهاجيه لكان التحامل والعدوان أظهر صفاته وألزمها له فى الهجاء .

وما لأبى الطيب لم يذكر الكرامة وعزة النفس يوم سعى إلى كافور ، وأنزل بساحته آماله ، وراح يتملقه ويبالغ فى مدحه ما شاء ؟ وهل لو ولىَ أبو الطيب صيداء مثلا كان يهجو المصريين ويتهكم بهم ؟ أو كان يقول كما قال ، والأمر بينه وبين كافور على ما يحب :

فَإِلاَّ تَكُنْ مِصْرُ الشَّرَى أَوْ عَرِينَهُ فَإِنَّ الَّذِى فِيهَا مِنَ النَّاسِ أُسْدُهُ ؟

غفر الله لأبى الطيب ، وأثابه أجزل الثواب على ما أسدى إلى اللغة والثقافة من صنيع .

على النجدى ناصف
مفتش المعارف بطوى